أدب الوفادة إلى نهاية القرن الأول الهجري

عبد العزيز الحاج مصطفى *

الخلاصـــة :

تعرّف الوفادة بالخروج إلى ذوي الشأن ، وهي خاصة بعلية القوم . ويكون الوافد واحداً أو أكثر . ومادتها : فصحى الكلام من نثر أو شعر . وقد اشتهرت في العصور الجاهلية والإسلامية ، وإن كانت قد امتدت إلى ما بعد ذلك . والبحث المرسوم بـــ (أدب الوفادة إلى نهاية القرن الأول الهجري) يدرسها من جانبين ؛ من جانب تاريخيّ . وقد قسّمها إلى ثلاثة عصور ؛ العصر الجاهلي وعصري صدر الإسلام والدولة الأموية . ثم جزّء في ذلك حسب مقتضياته . ومن جانب موضوعي، قصد معرفة ما طرأ عليها من تطور أو تغيير خلال ذلك التاريخ . والتقديم للوفادة أو التعقيب عليها أو المداخلة بين الوفادة والأخرى بعض من الدراسة الموضوعية التي قلّما خلت منها وفادة من الوفادات المذكورة . ويزيد في ذلك التفصيل في أصنافها ، أو بين أنواعها أو في اختصاصها . وهو أمر اقتضاه البحث . وقد كان الدافع فيه الإحاطة بهذا النوع من الأدب إحاطة تعرّف به وتساعد على فهمه فهماً صحيحاً .

ولم يحط البحث بالوفادات جميعاً ؛ بل كان التخير والانتقاء ؛ حسب الموضوع ، وحسب أصحاب الشأن الذين ترجم لهم . وقد دلّ على إمكانية التوسع فيه ليكون رسالةً جامعية أو كتاباً قيّماً .

* أستاذ الأدب والنقد المساعد – جامعة ذمار .

تعرّف الوفادة من حيث اللغة ؛ بالارتفاع والإشراف والتقدم في السير والورود . قال الفيروز أبادي : (الوفد ذروة الحبل من الرمل المشرف ، والوافد : السابق من الإبل .والقطا :سائرها . والمرتفع من الخد عند المضغ .) (١) (واستوفد في قعدته : ارتفع وانتصب ، أو الشيء ارتفع وأشرف . ووفد الطير يتقدّم سائرها في السير والورود) (٢) . ويضم اللغويون إلى هذا المعنى معنىً آخر يعنون به الخروج إلى ذوي الشأن . قال ابن منظور في اللسان في مادة((وفد)) : قال تعالى : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) (٣) . قيل:الوفد: الركبان المكرمون. وعن الأصمعي : وفد فلان يفد وفادة ؛ إذا خرج إلى ملك أو أمير . قال ابن سيده : وفد عليه وإليه ، يفد وفداً ووفوداً وإفادة على البدل . وأوفدهم عليه ، وهم الوفد والوفود . فأما الوفد . فاسمٌ للجمع . وقيل : جمع . وأما الوفود : فجمع وافد . وقد أوفده إليه . ويقال وفّده الأمير إلى الأمير الذي فوقه . وأوفد فلان إيفاداً إذا أشرف . وقال الجوهري: وفد فلان على الأمير . أي : ورد رسولاً ، فهو وافد . وجمع الوفد أوفاد ووفود . وأوفدته أنا إلى الأمير : أرسلته ..)) (٤)

وعلى أساس منه : يتداخل تعريف الوفادة في اللغة والاصطلاح ، ليدل على خصوصية معينة ، لنفر بذواتهم ، فيما إذا خرجوا لملك أو أمير . وقد يكون ذلك الوافد واحداً أو أكثر ، ويكون في مقام التكريم والوجاهة . ومادتها : فصحى الكلام ، من نثر وشعر . وتكون متخيّرة ، قد روأ فيها صاحبها ، قبل إلقائها . قال ابن عبد ربه في باب الوفود : (فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخيّر لها الكلام ،وتتهذّب الألفاظ ، وتستجزل المعاني ، ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم .) (٥)

وقد مرّت الوفادة بعصور تاريخية متعددة ، اختلف فيها من حيث الغرض والموضوع تبعاً لاختلاف العصور . فهي تتشابه في العصر الجاهلي والأموي إلى حدٍّ ما ، وتختلف في عصر صدر الإسلام اختلافاً بيناً حتّمه الدين الجديد وقد وظّف أنشطة الحياة المختلفة لغرض نشر الإسلام والدفاع عنه . وهذا الخلاف أوجب دراستها حسب تسلسل العصور الجاهلية والإسلامية .

أولاً : الوفادة في العصر الجاهلي :

يتزامن ظهور الوفادات عند العرب مع بدء ظهورهم على مسرح الحياة ، وظهور التجمعات القبلية والدويلات ، التي كان يرأسها كبراء ووجهاء أو ملوك تشدّ إليهم الرحال . وأقدمها – فيما يعتقد – ما ذكره ابن خلدون . قال في ذكر عمرو بن عدي بن نصر جد اللخيمين المناذرة : (مات وعمره مائة وعشرون سنة مستبداً منفرداً ، يغزوهم وتفد عليه الوفود) (٦) . وقد كانت تقليداً شائعاً ، وأكثر ما تلحظ عند ذوي الشأن . والذي عرف منها ثلاثة أصناف ، الصنف الأول كانت وجهته كسرى . وقد تعددت أغراضه تبعاً لشخصية الوافد . والصنف الثاني كانت وجهته الملوك العرب . وهو لا يختلف عن الصنف الأول . أما الصنف الثالث فقد كانت وجهته ذوي الشأن من العرب ؛ من رؤساء القبائل العربية ومقدميهم فضلاً عن الأسواق العربية التي كانت تفد إليها الوفود في المواسم عامة . وهذا الصنف أكبر من أن يحيط به بحث موجز . وسنكتفي بذكر الصنفين الأولين .

١– الوافدون على كسرى :

اشتهر بلاط كسرى في حينه بكثرة الوفود ،وبازدحامهم على بابه من العرب والعجم . قال ابن الكلبي :(قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ،فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم .)(٧)

أما وفادات العرب على كسرى بخاصة . فقد كانت على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو ما يشبه السفارات الرسمية التي تحدث الآن بين الدول ، ومثلها وفادة النعمان بن المنذر الآنفة الذكر ، ووفادة أبي سفيان صخر بن حرب وقد كان على قدر من الرياسة في قريش . قال : (أهديت لكسرى خيلاً وأدماً ، فقبل الخيل ورد الأدم ، وأدخلت عليه ، فكان وجهه وجهين من عظمه . فخرجت فأعطاني ثماني مائة إناء من ذهب .) (٨)

والنوع الثاني: كان لحاجة عامة ، حتمها التماسّ المباشر بين الفرس والعرب ، وقد نزلوا على ريف العراق . وكان كسرى يحرص على موادعة العرب وضمان طاعتهم . وكان لا بد للعرب من ترخيص بنزول الريف ، من أجل ذلك (وفد حاجب بن زرارة على كسرى ، وكان قد منع تميماً من ريف العراق . فاستأذن عليه . فأوصل إليه : أسيّد العرب أنت ؟ قال لا . قال : فسيّد مضر ؟ قال : لا . قال : فسيد بني أبيك ؟ قال : لا . ثم أذن له فلمّا دخل عليه ، قال له : من أنت ؟ قال : سيّد العرب . قال : أليس قد أوصلت إليك أسيّد العرب فقلت : لا . حتى اقتصرت بك على بني أبيك ، فقلت : لا . قال له : أيها الملك ، لم أكن كذلك حتى دخلت عليك . فلما دخلت عليك صرت سيّد العرب . قال كسرى أه املؤا فاه دراً . ثم رهن قوسه عنده ضمانة ألا تحدث تميم أمراً في ريف العراق .) (٩)

والنوع الثالث : كان قصد الصلة ، ويمثله وفادة عمرو بن معديكرب الزبيدي وقوله أمامه : (إنما المرء بأصغريه . قلبه ولسانه . فبلاغ المنطق الصواب ، وبلاغ النجعة الارتياد ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة) (١٠) وكأنه أراد أن يظهر ما عنده من فصاحة وقد كان العرب يباهون بذلك ، ويفخرون به على العجم .

الوافدون على ملوك العرب :

وقد كانت الدويلات العربية تجذب أهل الرياسة والشأن إليها ، فيدلي كلٌّ بما عنده ويفصح عن مكنون معدنه ، وعن سابقته في المجد ، وتقدمه على غيره . قال أبو عبيدة : (اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر فأخرج لهم بردي محرّق وقال : ليقم أعزّ العرب قبيلة فيلبسهما . فقام عامر بن أحيمر السعدي) (١١) فلبسهما . وقد كان من بين تلك الوفود كبار الشعراء من أمثال حسان بن ثابت ، الذي وفد على النعمان بن المنذر وحلّ عنده محل النابغة حيناً من الدهر (١٢) . وقد كان له وفادات على بلاطي المناذرة والغساسنة (١٣) . ووفادته على الغساسنة يرويها نفسه . قال : (قدمت على عمرو بن الحارث ،فاعتاص الوصول إليه ، فقلت للحاجب بعد مدّة : أن أذنت لي عليه وإلا هجوت اليمن كلها ، ثم انقلبت عنكم فأذن لي ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده

النابغة ، وهو جالس عن يمينه ، وعلقمة بن عبده ، وهو جالس عن يساره ، فقال لي يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك ونسبك في غسان فارجع فإني باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين — النابغة وعلقمة — أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي . وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولايحسبون الشر ضربة لازب
حبوت بها غسان إذكنت لاحقاً بقومي و إذ أعيت عليّ مذاهبي

فأبيت ، وقلت : لا بدّ منه . فقال : ذاك إلى عمّيك . فقلت لهما : بحق الملك إلا قدمتماني عليكما ، فقالا : قد فعلنا . فقال عمرو بن الحارث : هات يا ابن الفريعة . فأنشأت :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشي الجمال إلى الجمال البزّل
الضاربون الكبش يبرق بيضه ضرباً يطيح له بنان المفصل
والخالطون عنيهم بفقيرهم والمنعمون على الضعيف المرمل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمةٌ أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول (١٤)

أما النابغة الذبياني الذي يوصف بشاعر البلاطين فقد (عاش عند مناذرة العراق في الحيرة زمناً ثم عند الغساسنة في الشام زمناً آخر) (١٥) وكان عند كليهما مقرباً وكذلك طرفة بن العبد (١٦) ، وعبيد بن الأبرص ، الذي جرّت عليه وفادته وبالاً ، قتله المنذر بن ماء السماء (١٧) وهو لا يعلم في أحد أيام بؤسه التي كان يقتل فيها كل من يفد عليه فيه . وقد كان جعل لنفسه يومين في السنة : يوم نعيم ويوم بؤس ، فأول من

يطلع عليه في يوم نعيمه يعطيه مائةً من الإبل . وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان (١٨) أسود ، ثم يأمر به فيذبح ويطلى بدمه .)) (١٩)

ولم تقتصر الوفادات على بلاطي الغساسنة والمناذرة . بل كانت أكثر تنوعاً فلمّا انتصر سيف بن ذي يزن على الأحباش ، وتحررت اليمن منهم أتته وفود العرب ومعهم شعراؤهم تهنئه وتمدحه ، وتذكر ما كان من بلائه والثأر لقومه ، وأتاه وفد قريش وفيهم : عبد المطلب بن هاشم . فقدموا عليه وهو في قصر يقال له (غِمدان) فتقدم والد أمية بن أبي الصلت فمدحه بأشعار كان منها (٢٠) :

ليطلب الثأر مثل ابن ذي يزن ... لَجَّجَ في البحر للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعـامتُه ... فلم يجد عنده القول الذي قالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة ... من السنين ، لقد أبعدت إيغالا

إلى أن يقول:

لله درّهم من عصـبة خرجـوا ... ماإن رأينا لهم في الناس أمثالا
صيداً جحاجحة ،بيضاً خضارمة ... أسداً تربّب في الغابات أشبالا
تلك المكارم لا قعـبان من لبن ... شـيبا بماء فعادا بعد أبـوالا

((ثم تقدم عبد المطلب فقال : إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً بازخاً، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت ـــ أبيت اللعن ـــ رأس العرب ، وربيعها الذي به تخصب ، وملكها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشفك الكرب الذي فدحنا فنحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة ..

ثم أقبل سيف عليه وعلى القوم وقال: مرحباً وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلا ، وملكاً رِبَحْلاً(٢١) يعطي عطاء جزلاً . ثم أمر بإكرامهم وأحسن مثواهم.(٢٢)

وعليه فإن أكثر الوفادات في العصر الجاهلي كانت وجهتها ملوك العرب والعجم .

وقد دل تخيرهم لعيون الكلام على رجاحة عقل وسداد رأي . كما دلت مواقفهم الشجاعة على معدن كريم وأصالة ونبل وعلى مثل ذلك يدل ذلك الترحل البعيد ، وتحمل مشاق السفر وتبعات ما قد يحل بهم شأن عبيد بن الأبرص ، وقد قتله خروجه على تقاليد البلاط وعدم تأدبه مع الملك .

وعلى أساس منه يكون لأدب الوفادة في العصر الجاهلي قيمته . فهي تدل على علاقات متميزة مع علية القوم من العرب وهي تدل على عوالم أرحب من العلاقة مع الآخرين من خارج حدود الجزيرة العربية .

ثانيا: عصر صدر الإسلام :

يختلف أدب الوفادة في عصر صدر الإسلام عنه في العصر الجاهلي ، والعصر الذي تلاه بعد . فكما أن الأدب بعامة شهد تحولاً مع إطلالة العصر الجديد ، وتحوّل الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، فكذلك أدب الوفادة ؛ عاش التجربة نفسها ، وشهد تحولا في لغته وأسلوبه فمع كل وفادة كانت المناظرة بين فكرتين رئيستين: الأولى تُعبر عن الفكرة الجاهلية ممثلة بالشخصية الوافدة، والثانية تعبر عن الفكرة الإسلامية ممثلة بالشخصية المسلمة .

وأكثر ما يتمثل هذا الصنف من الوفادة ، في وفادة بني تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد قدم وفد بني تميم وفيه عطارد بن حاجب بن زرارة ، والزبرقان بن بدر فلما دخلوا المسجد (نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته (٢٣)أن أخرج إلينا يامحمد ،فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم فخرج إليهم ، فقالوا يامحمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا . قال قد أذنت لخطيبكم فليقل . فقام عطارد بن حاجب فقال:

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالاً عظاماً ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره

عدّة ، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤس الناس وأولي فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا .. . أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمراً أفضل من أمرنا. ثم جلس .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس ، أخي بني الحارث بن الخزرج : قم فأجب الرجل في خطبته . فقام ثابت ، فقال: الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، و لم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً ، أكرمه نسبا، وأصدقه حديثاً وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وأُتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين . ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المها جرون من قومه وذوي رحمه ، أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعالاً . ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عيه وسلم نحن . فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .)(٢٤)

وما إن انتهى الخطيبان ؛ خطيب تميم وخطيب النبي صلى الله عليه وسلم من الخطبتين ، حتى قام الزبرقان بن بدر شاعر تميم ، فقال: (٢٥)

نحن الكرام فلا حي يعـــادلـــنا ... منا الملوك وفينا تنـــصب البيع(٢٦)
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا ... من الشـــواء إذا لم يؤنس القزع(٢٧)
فننحر الكوم عُبطاً في أرومتنـــا ... للنـــازلين إذا ماأنزلوا شبـــعوا(٢٨)
فلا ترانا إلى حي ننـــافرهـــم ... إلا استفادوا فكانوا الرأس يقتطع
فمن ينـــافرنا في ذاك نعرفـــه ... فيرجع القوم والأخبار تستـــمع

فلما فرغ الزبرقان بن بدر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال . فقام حسان فقال:(٢٩)

إن الذوائب من فـــهر وإخوتهم ... قد بينـــوا سنة للنـــاس تتبـــع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا(٣٠)
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لايطبعون ولا يرديهم طمع(٣١)
فإنهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أوشمعوا(٣٢)

وهكذا تكون وفادة تميم صورة من صور الوفادة في جنسي النثر والشعر ، يتبارى فيها خطيب وخطيب وشاعر وشاعر . تغلب على الأول منهما ـــ وهو الوافد ـــ العبارة الجاهلية ، حيث التفاخر بالأيام ، وبالشجاعة والكرم ، وبالكثرة العددية ، وبالقوة ، بينما يكون في المقابل الرد على قدر أولئك . فهم في عماء عن الحقيقة ، ومن الواجب على رجل الدعوة أن يبلغ دعوته : (يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس) (٣٣)

ولا يملك أحد المباريين إلا أن يعترف بضعفه أمام الآخر ، فما أن فرغ الخطيبان والشاعران من قولهما حتى قال الأقرع بن حابس ـــ وهو من وفد بني تميم ـــ قال : والله إن هذا الرجل لمؤتى له ،(٣٤)لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا"(٣٥)وكأنه حكم بذلك على أدب الوفادة كله في عصر صدر الإسلام . فهو يقوى بقربه من المعاني الإسلامية ويضعف ببعده عنها . وهذه الصورة يمكن أن تلمس لدن النابغة الجعدي لقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدته التي يقول فيها : (٣٦)

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيراً
وجاهدت حتى ماأحس ومن معي سهيلاً إذا ما لاح ثمت غوّراً
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أوجراً

ويمضي في قصيدته إلى أن يقول :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

عندها قال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : (الجنة) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قل إن شاء الله . وفي رواية : "لايفضض الله فاك" (٣٨)

وشعر النابغة في هذه يفوق شعر الزبرقان في مبناه وفي معناه ، وسبب ذلك يعود للمعنى الإسلامي الذي حفل به شعره ، وقد جعله أحلى وأجزل .

ونظراً للموقف الإسلامي من الشعر بعامة والعقلية التي كان عليها العرب يومئذ فإن بعض الوافدين – وقد كان شاعراً – لم يقل الشعر أمام النبي صلى الله عليه وسلم ولاً أمام خلفائه من الراشدين . فهذا عمرو بن معديكرب الزبيدي يفد على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و لم ينشدهما الشعر .

لقد وفد في الأولى على النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من زبيد فأسلم وصدقه وآمن به . (٣٩) و لم ينشده .

وفي الثانية أوفده سعد بن أبي وقاص بعد القادسية على عمر بن الخطاب وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في الكتاب عليه ، فلما قدم على عمر سأله عن سعد فقال : "أعرابي في نمرته (٤٠) ، أسدٌ في تأمورته (٤١) ، نبطيٌ في جبايته (٤٢) يقسم بالسوية ، ويعدل في القضية ، وينفر في السرية وينقل إلينا حقنا نقل الذرّة ، فقال عمر : لشدّ ما تقارضتما الثناء ." (٤٤) وتمام الخبر أن "عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسية أن يعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن ، فقال سعدٌ لعمرو بن معديكرب : ما معك من القرآن ؟ قال : ما معي شيء . قال : إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن . فقال عمرو :

إذا قتـــلنا ولا يبكي لنا أحدٌ قالت قريش ألا تلك المقادير

نُعطي السوية من طعنٍ له نفذٌ ولا ســـوية إذ تعـــطى الدنانير

قال : فكتب سعدٌ بأبياته إلى عمر ، فكتب إليه أن يعطى على مقاماته في الحرب" (٤٥) ومن خبر عمروٍ هذا وخبره مع كسرى – وقد مرّ – يبدو أن بعضهم – حتى ولو كان على درجةٍ كبيرةٍ من الشاعرية – يترفع من أن يكون شاعراً ويلجأ إلى

متخير الألفاظ لينفذ إلى غرضه وليدلّل على وجاهته ، وهذا القول يؤكده أكثر من خبر ، فالوفود التي وفدت على النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة ، وقل منهم إلا من كان عنده مسكةٌ من شعر (٤٦) ، ومع ذلك كانت لغة الحديث هي الغلابة ، وكان النثر هو آلته في ذلك الوقت .

لقد قدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن بني سعد بن بكر – وقد كان طليعة قومه – قال : (بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله صلى اله عليه وسلم فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ، ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في أصحابه – وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين (٤٧) – فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه . فقال : أيكم ابن عبد المطّلب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا ابن عبد المطّلب ، قال : أمحمد ؟ قال: نعم ، قال : يابن عبد المطلب ، إني سائلك ومغلّظٌ عليك في المسألة ، فلا تجدنّ في نفسك . قال : لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك . قال : أنشُدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائنٌ بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائنٌ بعدك ، آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟قال:اللهم نعم.قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضة: الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشُدُه عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها،حتى إذا فرغ قال :فإني أشهد أن لا إله إلا الله.وأشهد أنّ محمداً رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه،ثم لا أزيد ولا أنقص..) (٤٨)

ووافدٌ آخر هو عدي بن حاتم الطائي . قال : (فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامدٌ بي إليه ، إذ لقيته امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً ؛ تكلمه في حاجتها . قال : قلت في نفسي والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته ، تناول وسادةً من أدم محشوّة ليفاً ،

فقذفها إليّ ؛ اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض ، قال : قلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : إيه يا عدي بن حاتم ، ألم تك ركوسياً (٤٩) ؟ قال : قلت : بلى . قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع (٥٠) ؟ قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يكن يحلُّ لك في دينك ، قال : قلت : أجل والله ، قال : وعرفت أنه نبيٌّ مرسل ...) (٥١)

بل إن بعض الوافدين كان جلّ همه أن يتبن الحقيقة ، وأن يهتدي إلى الدين الصحيح ، قد صرف عن ذهنه منثور القول ومنظومه . فهذا زيد الخيل يقدم في وفد من طيء ، فيسلم ويقفل راجعاً هو وقومه مطمئناً بالإسلام ، وقد سماه رسول الله صلىً الله عليه وسلم زيد الخير . (٥٢) وهذا الجارود بن عمرو أخو عبد القيس يقبل في وفد عبد القيس ، فيقول : (يا محمد إني قد كنت على دين ، وإني تاركٌ ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني ؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خيرٌ منه . قال : فأسلم وأسلم أصحابه .)(٥٣) .

لم يكن أدب الوفادة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم على غير ذلك ، كان ينسجم مع الأدب النبوي ولا يخرج عن دائرته ، ولم يزد عن أن يكون مناظرةً ، أو حواراً ، أو بعضاً من سؤال أو جواب ، بنية الوصول إلى معرفة الدين الصحيح . أما في عصر الخلفاء الراشدين فالوفادة فيه اختلفت بعض الشيء عنها في العصر النبوي ، إنها لم تعد حواراً بين فكرتين ، بل أصبحت مساءلةً بين شخصيتين . قال : (قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة فتكلموا عنده في أنفسهم ، وما ينوب كل واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق ، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، وكسرى وقيصر وبني الأصفر ، فهم من المياه العذبة والجنان المخصبة في مثل حولاء السَّلى (٥٤) وحدقة البعير ، تأتيهم ثمارهم غضّة لم تتغير ، وإنا نزلنا أرضاً نشاشة طرف في فلاة ،وطرف في ملح أجاج جانبٌ منها في منابت القصب وجانب سبخة نشّاشة ، لا يجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها

، تأتينا منافعها في مثل مريء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، ترنّق (٥٥) ولدها ترنيق العتر تخاف عليه العدوّ والسبع . فإلا ترفع خسيستنا ، وتنعش ركيستنا (٥٦) وتجبر فاقتنا ، وتزيد في عيالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً . وتصفّر (٥٧) درهمنا ، وتكبِّر قفيزنا ، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا . قال عمر : هذا والله السَّيد هذا والله السَّيد . قال الأحنف : فما زلت أسمعها بعدها . فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس هناك ، وأمه باهلية . قال عمر : هو خير منك ، إن كان صادقاً . يريد إن كانت له نيّة . فقال الأحنف :

أنا ابن البـــاهلية أرضـــعتني بـــثديٍ لا أجدَّ ولا وخيمِ
أغضّ على القذى أجفان عيني إذا شرَّ السفيه إلى الحليمِ (٥٨)

وكلام الأحنف أمام عمر رضي الله عنه – وهو من عيون الأدب الوافد – يدل على التحول في موضوع الوفادة ، وقد أصبحت تقوم مقام الهيئات المختصة في نقل الهمّ العام إلى الخليفة ، وتصوير ما فيه من مشكلات تصويراً يدل على عمق المعاناة في المجتمعات الناشئة بعد الفتح . كما أنها تدل على استمرار المنهج الذي كانت عليه في العصر النبوي ؛ فهي جادّة وهادفة ، تتسم بالصدق ، وتعالج قضية . وتتخذ من الكلمة وسيلةً لها ، لنقل معاناتها وتبليغ همها . وهي ليست واحدة ؛ بل يمكن أن يماز فيها بين أسلوبين جاهلي وإسلامي مع ما بينهما من التباين .

لقد كان همها في العصر النبوي ينحصر في "الدين الجديد" ومن أجل التعرف عليه لا بد من لقاء النبي صلى الله عليه وسلم والحديث معه ، والتعرف على التعاليم الجديدة التي جاء بها وقد كانت واحدةً من ثلاث :

أ- مسلمة دانت بالإسلام ثم وفدت على النبي صلى الله عليه وسلم لتأكد دخولها في الدين الجديد . قد حفلت بالمعاني الإسلامية الكريمة وعبرت عنها .

ب–محاورة . تحدوها الرغبة في التعرف على الدين الجديد . ويعد الفخر أبرز ما صدر عنها من حوار . وهي غير عدوانية ولا مخاصمة .

ج–معاندة تأبى الدخول في الدين الجديد وتتوعده . وهي صورة من صور الجاهلية . عدوانية ومخاصمة ومكابرة . وعلى مثل ذلك كانت وفادة عامر بن الطفيل (٥٩) .

أما همّها في عصر الخلافة الراشدة ، فينحصر في المشكلات الناشئة ، وما أصبح عليه أمر الدولة الإسلامية بعد الانسياح الواسع في الأقطار المفتوحة ، وقد أخذت قوافل البريد تتحرك باتجاه الجهات الأربع من كل صباح تنقل من وإلى عاصمة الخلافة كل ما يستجد على الساحة من جديد .

لقد كرت الوفادة بعد العصر النبوي و لم تتوقف إلا أنها كادت أن تصبح رسمية بعد أن كانت عفوية . وأن تتحوّل عن منهجها الذي كانت عليه . إلى منهج الخلافة الراشدة . وقد قصرت همها على صالح الأعمال .

ثالثاً – العصر الأموي :

تعد الوفادة في هذا العصر الأكثر أهمية بالقياس إلى الوفادة في العصرين الجاهلي والإسلامي . والأكثر قرباً مما كانت عليه في العصر الجاهلي . وإن كان الإسلام وقد ألقى بجرانه في الأرض ، قد وسمها بميسمه فغدت العبارة الإسلامية سمتها المميزة في كل ما استجد بعد من وفادات .

لقد تحوّلت الدولة عن منهج الخلافة الراشدة إلى الخليفة الملك الذي كل همّه أن يثبت حقّه في الخلافة والملك ، ورقى إلى سدة الخلافة أمراء لم يكونوا على سابقة من ذلك ، فكان كل همهم ، أن تقرّ الأمة لهم بحقهم في الملك ونظراً لما للشعر من آلة ، ولكونه يمثّل الجهاز الإعلامي يومئذ فقد أولى الخلفاء الشعراء أهمية خاصة ؛ اجتذبوهم إليهم بالإكرام ، وبالغوا في عطاءهم .

لقد وفدت ليلى الأخيلية على معاوية فأعطاها خمسين من الإبل (٦٠) لم تنقص ناقةً واحدة . ووفد جرير بن عطية على عبد الملك ، فأعطاه مائة من الإبل من نعم كلب (٦١) . فكان ذلك دافعاً للشعراء أن تكثر وفاداتهم على الشام وأصبحت دمشق بلد الوفادة يقصدها الشعراء من الأقطار المختلفة يطلبون سيبهم ، وينصرفون وهم شاكرون يلهجون بالثناء على الخليفة ،ويذيعون بين الناس ما ألفوا لدنه من مآثر . وكان هذا هو المطلوب من وجهة نظر رسمية . فجاءت المدحة الوافدة معبرةً عن أدب الخلافة وعن منهجها الجديد ، ورؤيتها الجديدة للحكم وقد أصبح حكماً وراثياً قائماً على ادعاء الحق فيه . وكانت وظيفة الشعر تثبيت ذلك الإدّعاء ، والترويج له . لذا راجت سلعته من جديد ، ووفد على دمشق كل من لديه قدرة على نظم الشعر . فكثرت الوفادات وتنوّعت ، وكان منها المديح الرائع المحكك الذي تبدعه قرائح الشعراء الفحول من أمثال : الأخطل ، وجرير ، والفرزدق ، والراعي ، وكثيّر ، وسواهم . وكان منها المديح الهابط الذي يخلو من أية قيمة فنية . ويمثل له بموسى شهوات المدنيّ الدار وقد كثرت وفاداته على الأمويين . وشعره في مدح يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية يصور ذلك . قال : (٦٢)

قم فصوّت إذا أتيت دمشقا يا يزيد بن خالد بن يزيد

يا يزيد ابن خالد إن تجبني يلقني طائري بنجم السعود

والوافدون على بني أمية كثيرون ، وما من خليفة أو أمير منهم ، إلا وقصده بعضهم وألقى بين يديه شعراً يمجّده ويمجّد آله ، وإن كان قد اشتهر منهم ثلاثة كان لهم قصب السبق في ذلك . والثلاثة هم : معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز . والاثنان الأولان . معاوية وعبد الملك ، هما اللذان اجتذبا إليهما المدحة الوافدة ، ووظّفاها من أجل خدمة البيت الأموي والدفاع عنه . أما عمر بن عبد العزيز فقد اتخذت المدحة في عهده منحى آخر وقد كان عهده عهد إصلاح الدولة ومحاولة العودة بها إلى شورى الخلافة .

١–الوافدون على معاوية بن أبي سفيان :

بدأت المدحة الوافدة رحلتها إلى الشام مع بداية حكم معاوية بن أبي سفيان سنة (٤١هـ) وتسليم الحسن بن علي رضي الله عنهما له بالخلافة . ففي عهده صار لها طابعها الخاص ، والخليفة بصدد تأسيس وراثة الخلافة ونقلها من شورى إلى ملك . فاستمال الشعراء وأغدق عليهم الأعطيات ، ووظفهم في إذاعة ما يريد .

ذكر أبو الفرج أن معاوية كان يؤثر مسكيناً الدارميّ ، ويصله ، ويقوم بقضاء حوائجه ، فلما أراد البيعة ليزيد ، تهيب ذلك وخاف ألا يمالئه عليه الناس ، فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً ، وينشدهما معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بني أمية ، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه ، وبنو أمية حواليه ، وأشراف الناس في مجلسه ، فمثل بين يديه ، وأنشد يقول : (٦٣)

إليك أمـير المؤمنـين رحلتـها تثـير القطا ليلاً وهنّ هجودُ
على الطائر الميمون والجدُّ صاعد لكـل أنـاسٍ طائرٌ وجدودُ
إذا المنـبر الغـربيّ خـلاه ربُّه فإن أمـير المـؤمنـين يزيدُ

والموقف نفسه وقفه عبد الله بن همام السلولي بعد وفاة معاوية وقد دخل على يزيد مهنّئاً . فقال : (٦٤)

تعزّوا يا بني حربٍ بصبرٍ فمن هذا الذي يرجو الخلودا
خلافة ربكم حاموا عليـها إذا غُمِزَتْ خنابسة أسـودا
إذا ما بان ذو ثقةٍ تلـقت أخا ثقـةٍ بها صنعاً مجيـدا
تلقـفها يزيـدٌ عن أبـيه وخذها يا معـاوي عن يزيدا

وبسبب من ذلك . كان الشاعر كثيراً ما يرى أن له يداً على الخليفة ، وأنه صاحب حق ، وقد أصبح معه في لحمة واحدة . لقد طلب مسكين الدارميّ من معاوية أن يفرض له عطاء ، فأبى ، فأنشده : (٦٥)

أخاك أخـــاك إن من لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهيجـــا بغـــير سلاحِ
وإن ابن عمّ المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغـــير جناحِ
وما طالب الحاجات إلا مُعـــدّياً ... وما نـــال شيئاً طالـــــب بنجاحِ
لحا الله من باع الصـــديق بغيره ... وما كـــل بيـــــع بعته .. برباحِ
كمفسد أدناه ومصلح غـــــيره ... ولم يأتمـــر في ذاك غير صلاحِ

إنه في هذه أخ وابن عم وصديق ، وله كل ما لذوي القربى من حقوق . وعلى مثل ذلك كان معن بن أوس المزني الذي أنشد معاوية : (٦٦)

وأي أخٍ تبـــلو فتحمـــــــد أمـــــره ... إذا لح خصـــمٌ أو نبـــــابك منزل
إذا أنت لم تنصف أخـــــــاك و جدتَهُ ... على طرف الهجران إن كان يعقلُ
ستقطع في الدنيا إذا ما قطـــــــعتني ... يمينـــك فانظـــر أي كـــفٍّ تبدّل
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهـــــر تقبـــل

الصورة بادية في أبيات معن هذه . لا موقف بدون ثمن . والشاعر الوافد الذي أصبح أكثر لحمة مع دولة الخلافة الجديدة يريد نصيبه من ذلك . وقطع ذلك النصيب هو بمثابة قطع اليد ، فلينظر الخليفة أي كف يبدّل ، فيما لو أعرض وقطع . وهي مسألة غاية في الحساسيّة . فالصراع على الخلافة لما تزل آثاره باقية . ويوماً بعد يوم يطرق باب الخليفة من يذكّره بذلك . قال الشعبي : (٦٧) (وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية ابن أبي سفيان فاستأذنت عليه فأذن لها . فلمّا دخلت عليه سلّمت . فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر .؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال لها : أنت القائلة لأخيكِ :

شمّر كفعل أبيك يا ابن عُمارة ... يوم الطعان وملتـــقى الأقرانِ
وانصر علياً والحسين ورهطه ... واقصـــد لهنـــدٍ وابنها بهوانِ
إن الإمام أخـــو النبي محـــمد ... علـــم الهـــدى ومنارة الإيمانِ

فقد الجيوش وسِـــر أمام لوائِهِ قُـــدُماً بأبيـــض صارمٍ وسنانِ

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسي . قال : هيهات ، ليس مثل مقام أخيك ينسى . قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان أخي خفيّ المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ في رأســـه نارُ

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته . قال : قد فعلت . فقولي حاجتكِ. قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك للنّاس سيّد ، ولأمورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا . ولا تزال تقدّم علينا من ينهض بعزّك ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة . هذا ابن أرطأة ، قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة . فإما عزلته عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك . فقال معاوية : إياي تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أردك على قتب أشرس ، فينفذ حكمه فيكِ . فسكتت ثم قالت :

صلى الإله على روحٍ تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال:ومن ذاك؟قلت: علي بن أبي طالب . . . فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف والعدل . فقالت :ألي خاصة أم لقومي عامة ؟قال: وما أنت وغيرك ! قالت: هي والله إذا الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما وسع قومي ،فقال معاوية: أكتبوا لها بحاجتها .)

لقدكان الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما مادة الأدب الوافد ، فبين مؤيد لمعاوية ماض معه إلى حيث يشاء ، شأن مسكين الدارمي ، عبد الله بن همام السلولي ، وبين سودة بنت عمارة ، التي كانت من مؤيدي علي كرم الله وجهه ، وإن عضتها المحنة فألقت برحلها على أبواب معاوية ، مسالمة موادعة تطلب لقومها من أمير المؤمنين

عطاء . وآخر من هؤلاء يفضل عليا ولا يحقر معاوية . إنه النجاشي الحارثي قيس بن عمرو ، لقد وفد على معاوية ، وألقى أمامه قصيدة قال فيها : (٦٨)

فإن نفست على الأقوام مجدهم ... فابســـط يديك فإن الخير يبتدر

واعلم بأن علي الخـــير من نفر ... شـــم العرانين لايعـــلوهم بَشَرُ

نعم الفـــتى أنت إلا أن بينكما ... كما تفاضل ضوء الشس والقمر

وإلى جانب هؤلاء كان من الوافدين ذو الحاجة الذي تسوقه بلواه إلى ارتكاب المخاطرة واعتساف الصعاب أملاً في قضائها ، لاهم له سوى ذلك . لقد وفد عبد العزيز بن زرارة سيد أهل الكوفة على معاوية ، فلما أذن له وقف بين يديه وقال: "ياأمير المؤمنين لم أزل أهز ذوائب الرحال إليك ، ولم أجد معوّلاً إلا عليك .أمتطي الليل بعد النهار ، وأسم المجاهل بالآثار ، يقودني إليك أمل ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يعذر وإذا بلغتك فقطني (٦٩). فقال معاوية :أحطط عن راحلتك رحلها) (٧٠)

وإلى جانب الموقف السياسي ، والشكوى من الحادث الجلل ، يصاب به الفتى واعتساف الليالي وصولا إلى الخليفة . كان بعض الوافدين يطيب له المقام عند الخليفة ، فيكون من ندمائه . . .ذكر القالي أن خيار بن أوفى النهدي (دخل على معاوية رضي الله عنه ، فقال له: ياخيار كيف تجدك ؟ وما صنع الدهر بك ؟ فقال: ياأمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثكلني لذاتي ، وأوهى عمادي ، وشيب سوادي ، وأسرع في تلادي ، ولقد عشت زمناً أصبي الكعاب ، وأسر الأصحاب ، وأجيد الضراب ،فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ، وأنشأ يقول:

غبرت زماناً يرهب القرن صولتي ... كأني شتيمٌ باسل القلب خادر(٧١)

يخاف عدوي صـــولتي ويهـــابني ... ويكرمني قرني وجاري المجـــاور

وتصبي الكعاب لمتّي وشـــــمائلي ... كأني غصن ناعم النبت ناضـــر

فـــبان شـــبابي واعـــترتني ريثة ... كأني قـــناة أطرتهـــا المـــآطـــر

أدب إذا رمـــت القـــيام كأننـــــي ... لـــدى المشـــي قرم قيده متقاصر

وقصر الفتى شيب وموت كلاهما له سائق يسعى بذاك وناظر

قال معاوية : أحسنت لقول ، واعلم أنها مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من الصادرين بخير)(٧٢)

وصورة أخرى من صور الوفادة قد لا نجدها عند غير الوافدين على معاوية ،إنها الموقف المتشدد من الخليفة ؛ النيل منه والتعريض به . .قال: (وفد عقيبة بن هبيرة الأسدي على معاوية ، فدفع له ورقة فيها أبيات من الشعر ، فقال له معاوية: ما جرأك علي؟ قال: نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك . فقال: ماأظنك إلا سابقاً . وكان مما أنشده في الورقة(٧٣)

معاويَ إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد
فهبنا أمة ذهبت ضياعاً يزيد أميرها وأبو يزيد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع في الخلافة إذ هلكنا وليس لنا ولالك من خلود
ذروا خون الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد

وعلى هذا مثلت المدحة الوافدة على معاوية مواقف مختلفة بعضها أشد قسوة من بعض ، كان أقلها المجردة التي تفيض وبالشكوى والحنين . ولمعاوية أبيات شعر تنسب له يصور هذه الحالة . قال يخاطب المسلمين :(٧٤)

إذا أنا أعطيت القليل شكوتم وإن أنا أعطيت الكثير فلا شكر
وما لمت نفسي في قضاء حقوقكم وقد كان لي فيما اعتذرت به عذر
وأمنحكم مالي وتكفر نعمتي وتشتم عرضي في مجالسها فهر
إذا العذر لم ينفع ولم يقبل الأسى وضاقت قلوب منهم حشوها الغِمْرُ
فكيف أداوي داءكم ودواؤكم يزيدكم غياً فقد عظم الأمر
سأحرمكم حتى يذل صعابكم وأبلغ شيء في صلاحكم الفقر

الوافدون على عبد الملك بن مروان

والخليفة الثاني بعد معاوية الذي كان له شأن في عالم الوفادات ، هوعبد الملك بن مروان ، وقد سلك مسلك معاوية في اجتذاب الشعراء ، من أجل استمرار الترويج للبيت الأموي –المرواني خاصة –وإبراز الشخصية الأموية ، وكأنها الأحق بالخلافة ، من عامة المسلمين وخاصتهم . ويأتي أبناؤه في المقدمة . ومن أجل هذا الغرض كرت الوفادات عليه وكثر المتزلفون الذين يتخذون من ذلك وليجة إليه. لقد أوفد الحجاج بن يوسف الثقفي –الذي كان هواه مع الوليد بخاصة –عمران بن عصام العنزي إلى عبد الملك ليزين له بيعة الوليد . فأنشد ه قوله :(٧٥)

أمير المؤمنـــين إليك نهـــدي ... على النأي التحية والسلاما
أجبني في بنيك يكن جـــوابي ... لـــهم عـــاديـــة ولنا قواما
فلو أن الوليد أطـــاع فيـــه ... جعلت له الخلافـــة والذماما
شبيهك حـــول قبته قـــريش ... به يستـــمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصبُ يوما ... لدن خلع القـــلائد والتماما
فإن تؤثر أخـــاك بها فـــإنـــا ... وجـــدك لانـــطيق بها اتهاما
ولكـــنّا نحـــاذر من بنـــيـــه ... بني العـــلات مـــأثرة سماما
ونخشى إن جعلت الملك فيهم ... ســـحاباً أن تعود لهم جهاما

فقال عبد الملك: إنه عبد العزيز – وكانت الولاية معقودة له من بعد أخيه –قال احتل له يا أمير المؤمنين . وقفل راجعاً ، ونشبت فتنة ابن الأشعث فاقمه الحجاج بالإنحياز له وطلبه وقتله . .)

وإذا طوينا كشحاً عن هذه التي تذكرنا بمسكين الدارمي –وقد كان هواه مع يزيد – نلفى الوفادات المقبولة . وقد هرع أصحاب الحاجات إلى دار الخلافة هذا يسأل قربى ، وذاك يذكّر بيد ، وآخر يطلب حاجة ، أو يلتمس أمنا ، أو يقدم نصيحة . لقد

وفد عليه الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب الذي يعرف بالفضل اللهبي وألقى بين يديه مدحته التي يقول فيها: (٧٦)

أتيتك خالاً وابن عم وعمـــة ... ولم أك شعباً لاطه بك مشعب
فصل واشجات بيننا عن قرابة ... ألا صلة الأرحام أبقى وأقرب
ولا تجعلني كامرئ ليس بيـنه ... وبيـنكم قربى ولا متنسـب

واللهبي في هذا يذكّر بالقربى وبصلة الرحم . فهو صاحب حاجة يطلب سيب الخليفة ، ويتخذ من القرابة الهاشمية الأموية وليجة له. ولعله أول هاشمي يمدح أموياً(٧٧).

ومن ذي القربى إلى ذي السابقة . ذلك الذي له على الخليفة يد ، وقد صحبه وقاتل دونه ، إنه الحارث المخزومي وقد وفد على عبد الملك فلم يجد عنده ما يحب من قضاء حاجة أو سيب فقال: (٧٨)

صحبتك إذ عيني عليها غشـاوة ... فلما انجلت قطعت نفـسي ألومها
وما بي إذ أقصيتني من ضـراعة ... ولا افتقرت نفسي إلى من يضيمها
عطفت عليك النفس حتى كـأنها ... بكفـيك بؤسي أو إليـك نعيـمها

المرارة والأسى يبدوان من هذه الأبيات وقد طفحت بالخيبة والألم . لاسيما أن الرجل ذو دالة سابقة ويد على الخليفة وقد صحبه في أوقات الشدة .

ومن هذين إلى ذوي الحاجات . وقد كانت العرب لا تستحي من مسألة الملوك (٧٩) فكثرت وفاداتهم عليهم . لاسيما في سني الجدب وأوقات الشدة ، ومن الذين وفدوا على دمشق بعد جدب أصاب الناس حاجب بن ذبيان المازني .لقد وفد على عبد الملك وأنشده:(٨٠)

وما أنا يوم دير خناصرات ... بمرتدّ الهموم ولا مليم (٨١)
ولكني ألمت لحال قـومي ... كما ألم الجريح من الكلوم
بكوا لعيالهم من جهد عام ... خريق الريح منجردِ الغيومِ

أصابت وائلاً والحي قيساً وحلت بركها ببني تميم
أقاموا في منازلهم وسيقت إليهم كل داهية عقيم
أعني من جداك على عيال وأموال تساوك كالهشيم
أصدت لاتسيم لها حواراً عقيلة كل مرباعٍ رؤوم

ومن هذه وقد ارتسم في محياها شبح الجوع والألم ، وقد أتى الجدب على ما لدى العرب من فائض مؤونة ، إلى أخرى ؛ إن صاحبها ليس صاحب مسألة ، إنه عبد الله بن الحجاج أحد مؤيدي ابن الزبير ، ضاقت به الأرض بعد مقتل عبد الله ، فجاء دمشق متنكراً واحتال على عبد الملك حتى دخل عليه وأنشده : (٨٢)

أبلغ أمير المؤمنين فإنني مما لقيت من الحوادث موجع
منع القرار فجئت نحوك هارباً جيش يجر ومقنبٌ يتلمّع (٨٣)

فقال له عبد الملك : ما خوفك لا أمّ لك فقال عبد الله :

إن البلاد عليّ وهي عريضةٌ وعرت مذاهبها وسدَّ المطلع

فقال عبد الملك : ذلك بما كسبت يداك . وما الله بظلامٍ للعبيد . فقال عبد الله:

كنا تنخلنا البصائر مرة وإليك إذ عمي البصائر نرجع
إن الذي يعصيك منّا بعدها من دينه وحياته متودعّ
آتي رضاك ولا أعود لمثلها وأطيع أمرك ما أمرت وأسمع

فقال له عبد الملك : هذا لا نقبله منك ، إلا بعد المعرفة بك وبذنبك . فقال عبد الله :

ولقد وطئت بني سعيدٍ وطأةً وابن الزبير فعرشه متضعضع (٨٤)

فقال عبد الملك : لله الحمد والمنّة . فقال عبد الله :

حربت أصيبيتي يدّ أرسلتها وإليك بعد معادها ما ترجعُ
وأرى الذي يرجوا تراث محمدٍ أفلت نجومهم ونجمك يسطعُ

فقال عبد الملك : ذلك جزاء أعداء الله . فقال عبد الله :

أدنو لترحمني وتجبر فاقتي وأراك تدفعني فأين المدفعُ

فتبسم عبد الملك وقال : إلى النار . فمن أنت الآن ؟ قال : أنا عبد الله بن الحجاج الثعلبي . وطئت دارك ، وأكلت طعامك ، وأنشدتك . فإن قتلتني بعد ذلك فأنت وما تراه ثم تابع الإنشاد .. فأمّنه عبد الملك وكتب إلى الحجاج بذلك .

ولم يكن عبد الله بن الحجاج أوحد زمانه في هذه فهذا عُبيد الله بن قيس الرُّقيَّات وهو زبيري الهوى ، يفد على عبد الملك وقد كان أهدر دمه وينشده : (٨٥)

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إذا غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا تصلُحُ إلا عليهم العربُ
إنّ الفنيق الذي أبوه أبوال عاص عليه الوقار والحجبُ
خليفة الله فوق منبره جفّت بذاك الأقلام والكتبُ
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهبُ

لم ترق هذه المدحة عبد الملك . وقد كان الشاعر مدح قبله خصمه مصعب بن الزبير بقوله : (٨٦)

إنما مصعبُ شهابٌ من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب : إنما مصعبٌ ... إلخ

يقول شوقي ضيف : (ويظهر أن عبد الملك لم يطب نفساً له . ومن ثم نرى ابن قيس يولي وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشراً ، ويعطيه الجزيل ، ويعود من لدنه إلى الحجاز ، فيعيش في ظل ابن جعفر ، ويغدق عليه من برّه ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ويرحل إليه ، ويمكث عنده طويلاً .) (٨٧)

ومثل عُبيد الله بن قيس الرقيات إسماعيل بن يسار النسائي . لقد كان منقطعاً إلى آل الزبير بمكّة . ثم وفد على عبد الملك طلباً للمال ، ومدحه بقوله : (٨٨)

ألا يالقومي للرقـاد المسـهّـد ... وللماء ممنوعاً عن الحائم الصدي
وللحال بعد الحال يركبها الفتى ... وللحب بعد السـلوة .. المتمرّد
إليك أمام الناس من بطن يثرب ... ونعم أخـو ذي الحـاجة المتعمّدِ
رحلنا لأن الجود منـك خليقةً ... وأنّـك لم يذمـم جـنابك مجتدِ

لقد كان إسماعيل بن يسار شعوبياً فارسياً ، يألم لذهاب ملك فارس ، ولما آل إليه أمر الفرس من بعد . يدل على ذلك ذكره قومه وما هم فيه . وهو القائل وقد وفد على هشام بعد : (٨٩)

أصلي كريمٌ ومجدي لا يقاس به ... ولي لسانٌ كحدِّ السيف مسـموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حَسَبٍ ... من كل قرم بـتاج الملك معموم
جحاجحٍ سادةٍ بُلـجٍ مرازبَـةٍ ... جردٍ عتاقٍ مساميـحٍ مطـاعيم (٩٠)
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهم أذلّـوا ملوك الترك والروم

وقد كانت النتيجة أن غضب عليه هشام ، وألقاه في بركة ماء حتى كادت تخرج أنفاسه ، ونفاه إلى الحجاز .

ومن الذين وفدوا على عبد الملك من أهل السّياسة كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي المعروف باسم "كثيّر عزّة" وقد كان علوي الهوى ، اجتذبه سيب الخليفة وسلطانه . قال يمدح عبد الملك ويذكر شجاعة مروان وحكمته في ذلك اليوم الفاصل : (٩١)

أبوك الذي لما أتوا مرج راهط ... وقـد ألّبـوا للشّر فيمن تألبا
تشنّأ للأعداء حتى إذا انتهـوا ... إلى أمره طوعاً وكرهاً تحببا

وإلى جانب هذه المدحة الوافدة الهادفة المدحة الطريفة وما تتفتق عنه أذهان الشعراء من نوادر . إنه أبو المولى المدني محمد بن عبد الله مولى بني عوف من الأنصار وفد على عبد الملك وأنشده : (٩٢)

وأبكي فلا ليلى بكت من صبابةٍ لباكٍ ولا ليلى لذي الود تبذل
وأقنع بالعتبى إذا كنت مذنباً وإن أذنبت كنت الذي أتتصل

قال عبد الملك : من ليلى هذه ؟ لإن كانت حرةً لأزوجنكها ، ولإن كانت مملوكةً لأشترينها لك بالغةً ما بلغت فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، ما كنت لأمعّر بوجه حرٍّ حرمته ، ولا في أمته ، ووالله ما ليلى إلا قوسي هذه سميتها ليلى فأنا أنسب بها .

وشعر أبي المولى هذا وهو نسيجٌ وحده في ذلك العصر يذكرنا بالأدب الرمزي وبالرمزيين . ويزيدها روعةً أنها ألقيت في بلاط الخلافة . وأنها كانت أشبه بالدعابة يلقيها شاعر وافد على الخليفة الملك . كما أن بعضهم كان يمحض الخليفة النصح ، وقد رأى من كرورة الأيام ، ومبالغ الكبر ما يوجب الاعتبار . يتجلّى ذلك في شعر الهيثم بن الأسود النخعي وقد وفد على عبد الملك فقال له : كيف تجدك ؟ فقال : أجدني قد ابيض مني ما كنت أحبُّ أن يسود ولان مني ما كنت أحبُّ أن يشتد ، ثم أنشده : (٩٣)

اسمع أنبيك بآيات الكبر نوم العشاء وسعالٌ في السحر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وسرعة الطرف وتحميج النّظر وتركي الحسناء في قبل الطهر
وحذراً أزداده إلى حذر والناس يبلون كما يبلى الشجر

وعلى مثل ذلك كانت وفادة أرطأة بن سهية فقد وفد على عبد الملك وأنشده : (٩٤)

رأيت المرء تأكله الليالي كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقي المنية حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيد

وأعلم أنها ستكرُّ حتى تـوفّي نذرهـا بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك فقال: بل توفّي نذرها بك . ويلك ما لي ومالك فقال : لا ترع يا أمير المؤمنين ؛ فإنما عنيت نفسي . وكان أرطأة يكنّى أبا الوليد فسكن عبد الملك .

لقد وفد أعلام الشعراء على عبد الملك وأنشدوه غرر القصائد ، التي لما تزل نماذج تحتذى في الفن الشعري ومنهم على وجه التخصيص جرير بن عطية ، والراعي النميري ، وكثير عزة ، والفرزدق وغيرهم من الشعراء لقد وفد إليه جرير بن عطية ، وهو شاعرٌ بدأت وفاداته المبكرة على دمشق وقد خصّ الأمويين بأكثر من ثلاثين قصيدة (٩٥) ، وأقدمها كان على يزيد بن معاوية (٩٦) إلا أن المدحة التي كان لها شأنٌ يذكر ، تلك التي ألقاها بين يدي عبد الملك ، وقد وفد عليه .. ومطلعها : (٩٧)

أتصحو أم فؤادك غير صاحِ عشية هم صحبك بالرواح

ومن أبياتها :

أغثني يا فداك أبي وأمي بسيبٍ منك إنّك ذو ارتياحِ
فإني قد رأيت علي حقاً زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت علي ريشي وأثبتّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ

وهذه المدحة ـــ وهي من غرر القصائد ـــ جعلت عبد الملك يعتدل في جلسته بعد أن كان متكأً ويقول : (من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت)(٩٨) ومن ثمّ يهبه مائة ناقة تقديراً لهذه الشاعرية الفذّة التي جعلت الخليفة وآله خير بني الدنيا نبلاً وكرامة .

أما الراعي النميري فالموقف معه يختلف . فهو رجلٌ رئيسٌ ، وجيهٌ في قومه ، لم يؤثر عنه الاستجداء ، ولم يفد على الخليفة إلا ليرفع ظلامةً عن قومه (٩٩) وقد اشتهر بقصيدته الرائعة التي أنشدها عبد الملك ومطلعها : (١٠٠)

ما بال دفّك بالفراش مذيلا　　أقذى بعينك أم أردت رحيلا

ومن أبياتها :

أنت الخليفة عدله ونوالــه　　وإذا أردت لظــالمٍ تنــكيلا

فارفع مظالم عيلــت أبناءنا　　عنّا وأنقذ شلونا المأكولا

فأبوك سيّدها وأنت أشدّها　　ومن الزلازل في البلابل حولا

والقصيدة تقع في خمسة وثمانين بيتاً .ذكرها أبو زيد القرشي في (جمهرة أشعار العرب) (١٠١) . وهي من القصائد المنتقاة من عيون الأدب الوافد .

لقد كان لعبد الملك مكانته . كان مهيباً وجيهاً ، قال ابن عبد ربّه : دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبّل يده وقال : (يدك يا أمير المؤمنين أحقّ يد بالتقبيل ، لعلوّها في المكارم ، وطهرها من المآثم ، وإنك تقل التثريب ، وتصفح عن الذّنوب ، فمن أراد بك سوءاً جعله الله حصيد سيفك ، وطريد خوفك) (١٠٢)

وعلى مثل ذلك كان أكثر الوافدين على عبد الملك . بل كان بعضهم يتعمّد الفكاهة في مجلس الخليفة ، ومنهم علي بن الغدير الغنوي . لقد دخل على عبد الملك بن مروان وقال لأكذّبنّ اليوم أمير المؤمنين . فأنشده :

أصارمة أم لا حبــالك زينــب　　وهل بين صرم الحبل والوصل مذهب ؟

فقال عبد الملك : لا . قال علي :

نعم إن أسباباً هي ارتثّت القوى　　يــغرُّ بهــا المــرء الغــويُّ ويكذبْ

فقال عبد الملك كذّبتني يا بن الغدير قبّحك الله . (١٠٣)

وفكاهة ابن الغدير الغنوي في مجلس الخليفة تدل على وجاهة ، وعلى لون من ألوان السمر الذي كان يشيع في ذلك الوقت . والآداب في الأصل وليدة المجالس وربع القوم .

الوافدون على عمر بن عبد العزيز :

يعدّ عمر بن عبد العزيز أحد الخلفاء الثلاثة الذين اختصوا بالقسط الأكبر من الوفادة . وإذا كان كلٌ من معاوية وعبد الملك يعدّ مؤسساً . وقد جذبا الشعراء إليهما . فإن عهد عمر بن عبد العزيز كان عهد إصلاح ولهذا جاء الأدب الوافد متناسباً وذلك الغرض . لقد وفد عليه الأحوص ؛ عبد الله بن محمد . وكان قد انقطع لبني أمية يمدحهم ، ويسرف في مدحهم . واستأذنه في الإنشاد ، فقال له : قل ؛ ولا تقل إلا حقاً . فأنشده قصيدةً من أبياتها (١٠٤)

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف ... لمنطق حقٍ أو لمنطق باطل
فلا تقبلنّ إلا الذي وافق الرضى ... ولا تُرجعنّ كالنساء الأرامل
فإن لم يكن للشعر عندك موضعٌ ... وإن كان مثل الدرّ في فتل فاتل
فإن لنا قربى ومحض مودّةٍ ... ومِيراث آباءٍ مشوا بالمناصل

-ثم وفد عليه كثيّر عزّة ، فقال له القول نفسه . فأنشده (١٠٦)

وُليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تقبل إشارة مجرم
وأظهرت نور الحق فاشتدّ نوره ... على كل لبسٍ بارق الحقّ مظلمِ
وعاقبت فيما قد تقدّمت قبلَه ... وأعرضت عمّا كان قبل التقدّم
وصدّقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضياً كلُّ مسلم

وصيغة القصيدة ، ونمطها عند الأحوص وكثيّر يختلف عنها عند الوافدين على الأمويين بعامة . فقد تحوّل فيها الشعر إلى كلام مؤلف . وافق فيه الحديث النبوي : (إنما الشعر كلام مؤلّف) (١٠٧) . ولبّى رغبة لدن الخليفة الراشد الذي كان يرغب في العودة إلى الحياة الجادّة والبعد عن العبث واللهو . ربما لهذا السبب اختصّ بوفادة الزّهاد عليه . ومنهم سابق البربري الذي كان يترل الرّقّة ، واشتهر بوفادته عليه . وقد كانا معاً يتناشدان أشعار الزهد والحكمة . لقد وفد عليه . فقال له عمر رضي الله عنه : عظني . فأنشده : (١٠٨)

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التّقى ووافيـــت بعد الموت من قد تزوّدا

ندمت على أن لا تكون شركته وأرصدت قبل الموت من كان أرصدا

إنه عالمٌ جديد يحلّ فيه حب الله وحب من يحبه بدل التكسّب والنفاق . ويعود للعقل سلطانه بعد الهوى ، وينصاع لكلمة الحق . لقد حدّث العتبي عن سفيان بن عيينة قال : (قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق ، فنظر إلى شاب منهم يتحوش للكلام . فقال : أكبروا أكبروا فقال : يا أمير المؤمنين . إنّه ليس بالسنّ . ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من هو أسنّ منك . فقال عمر: صدقت ، رحمك الله ، تكلم . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة ، فقد أمّننا الله بعدلك من جورك . قال : فممن أنتم ؟ قال : وفد الشكر . قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل . فقال : يا أمير المؤمنين . لا يغلبنّ جهل القوم بك معرفتك بنفسك فإن ناساً خدعهم الثناء ، وغرّهم شكر الناس فهلكوا . وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم . فألقى عمر رأسه على صدره .) (١٠٩) لقد وسم أسلوب عمر أدب الوافدين عليه بسمته . وجعله يقترب كثيراً مما كان عليه في عصر صدر الإسلام . لذا شاعت فيه العبارة الإسلامية . وجاء معبراً في كثير منها عن الإسلام ونظرته للحياة . لا سيما وقد وجدوا فيه شبهاً لجدّه الفاروق رضي الله عنه . قال عويف القوافي وقد وفد عليه ، يحثه على ذلك النّهج . (١١٠)

يا عمر الخير الملقّى ومِقه سُمّيت بالفاروق فافرق فرقه

لم تكن الوفادات في العصر الأموي وقفاً على من ذكر . بل اشتهر بها الخلفاء جميعاً . وقد تحولت مجالسهم إلى مسامرات . وإلى فكاهة وتسلية , وهذا ما يمكن أن يستشف من تهاجي جرير والفرزدق أمام سليمان بن عبد الملك وقد وفدا عليه . فقد ذكر أن سليمان أتي بأسرى من الروم وعنده الفرزدق ، فقال له : قم فاضرب أعناق هؤلاء ودفع إليه سيفاً كليلاً . فقام الفرزدق فضرب به عنق رجل منهم .فنبا السيف . فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق : (١١١)

ما يعجب الناس إن أضحكت خيرهم ... خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش ... عن الأسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفساً قبل ميتتها ... جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

وهاجاه جرير بقوله :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشعٍ ... ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ضربت به عند الإمام فأرعشت ... يداك وقالوا محدث غير صارم

فردّ عليه الفرزدق بقوله :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكّهم ... إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم ... أبا عن كليب أو أخاً مثل دارم

ومثل هذا اللون من الأدب الوافد . هو الذي اشتهرت به مجالس الخلفاء . وقد كثر كثرة ظاهرة . وكادوا يختصّون به جميعاً .

الوافدون على الولاة :

كان الولاة في العصر الأموي يحتلون مرتبة الوجاهة بعد الخلفاء . وقد كان الخلفاء يتخيرونهم تخيراً فيه دقة . بما يخدم السلطة الأموية . وبما ينفع الناس . والوفود عليهم أكثر من أن تحصى وهم على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : كان يطلب الصلة حسب ، وقد كرت وفاداته . ومن هؤلاء عمرو بن معد يكرب الزبيدي . لقد وفد على (مجاشع بن مسعود السُّلمي ، وكانت بين عمرو وبين سُليم حروب في الجاهلية . فقدم عليه البصرة يسأله الصلة ، فقال : اذكر حاجتك . فقال: حاجتي صلة مثلي .فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وفرساً من بنات الغبراء وسيفاً جرازاً ، ودرعاً حصينة ، وغلاماً خبازاً . فلما خرج من عنده، قال له أهل المجلس : كيف وجدت صاحبك ؟ قال : لله در بني سليم ماأشد في الهيجاء لقاءها ، ، وأكرم في اللأواء عطاءها ، وأثبت في المكرمات بناءها ، والله يابني سليم ، لقد قابلناكم في الجاهلية فما أجبنّاكم ، ولقد هاجيناكم فما أفحمناكم ، ولقد سألناكم فما أبخلناكم.)(١١٢)

والنوع الثاني : كان موفداً . ومن هؤلاء وفادة رسول المهلب بن أبي صفرة على الحجاج بقتل الأزارقة . قال أبو الحسن المدائني :(لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة ، بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني موفدك إلى الحجاج فسر ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق . وتوجه . فلما دخل على الحجاج ، قال له: مااسمك ؟ قال مالك بن بشير ، قال : ملك وبشارة . قال : كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمّل ، وأمّن من خاف قال: كيف هو بجنده ؟ قال : والد رؤوف . قال: فكيف جنده له ؟ قال: أولاد بررة . قال: كيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل . قال: فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال: نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم ، ويلقونا بجدهم فيطمعون فينا . قال: كذلك الحد إذا لقي الحد . قال فما حال قطري ؟ قال: كادنا ببعض ما كدناه قال فما منعكم من اتباعه ؟ قال: رأينا المقام من ورائه خيراً من اتباعه . قال : فأخبرني عن ولد المهلب. قال: أعباء القتال بالليل ، حماة السرح بالنهار .فال: أيهما أفضل ؟قال: ذلك إلى أبيهم . قال: لتقولن . قال : هم كحلقة مضروبة لايعلم طرفاها .قال: أقسمت عليك هل روأت في هذاالكلام ؟ قال: مااطلع على غيبه أحدا. فقال: الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع لا المصنوع) (١١٣)

والنوع الثالث : وهو نوع ، لم يلف حظاً عند الخلفاء فتحول إلى ولاتهم . وهم كثير يذكر منهم أعشى همدان الذي وفد على دمشق فلم يجد حظاً فيها ، فارتحل إلى النعمان بن بشير الأنصاري ، وقد كان والي حمص . فأخذ له العطاء ، واستمنحه اليمانية فمنحوه عن كل رجل ديناراً وكانوا عشرين ألفاً فقال يمدحه: (١١٤)

ولم أر للحاجات عند التماسها ... كـــنُعمانَ نعمانِ الندى ابن بشير

إذا قـــال أوفى مايقول ولم يكن ... كمُـــدّل إلى الأقوام حبل غرور

متى أكفر النعمان لاألفى شاكراً ... وما خـــير من لايفتدي بشكور

فلولا أخو الأنصار كنت كنازل ... ثـــوى ما ثـــوى لم ينقلب بنقير

الوافدون على ابن الزبير :

الوافدون على ابن الزبير قلة . وسبب ذلك "بخل وحرص شديد جعل كثيراًمن العرب ينصرف عنه" (١١٥) (ويضرب الرواة لذلك مثلاً ، فضالة بن شريك الأسدي ، وقيل ابنه وفد عليه ، فقال له : إن ناقتي قد نقبت ودَبرت. فقال : ارقعها بجلد ، واخصفها بهلب ، وسِر البردَين (١١٦) بها تصح فقال فضالة : إني أتيتك مستحملاً ، ولم آتك مستوصفاً ، فلعن الله ناقة حملتني إليك . فقال له ابن الزبير إن(١١٧) وراكبها . وانصرف فضالة من عنده وهو يقول :

شكوت إليه أن نقبت قلوصي فرد جواب مشدود الصفاد

يضـــن بـــناقة ويروم ملـــكاً محال ذلكم غـــير الســـداد)

وقد ذكر ابن عبد ربه في العقد بعضاً من ذلك . قال: (لما قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد الثقفي ، خرج حاجاً فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق . فقال له: يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق ، لم أدع لهم بها نظيراً لتعطيهم من هذا المال . قال: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله ! والله ما فعلت . فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم ، قال لهم : يا أهل الكوفة ، وددت –والله– أن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار والدرهم بل لكل عشرة رجلاً . قال عبيد الله بن ظبيان : أتدري يا أمير المؤمنين . ما مثلنا ومثلك فيمن ذكرت . قال : وما ذلك ؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل:

علقتها عرضاً وعلّقت رجلاً غيري وعـــلّق غيرها الرجل

أحببناك نحن ، وأحببت أنت أهل الشام ، وأحبّ أهل الشام عبد الملك ، ثم انصرف القوم من عنده خائبين ، فكاتبوا عبد الملك بن مروان ، وغدروا بمصعب بن الزبير .) (١١٨)

وعليه فإن الوفادة على ابـــن الـــزبير نختلـــف عنـــها عنـــد بـــني مـــروان ، وقد عدمت الحافز لذا قلت فيها المتخيرات الطوال ، كما قل الشعراء المطبوعون الـــذين

يفدون عليه ابتغاء الصلات ،ولم ترق إلى مستوى نظيرتها التي ألقيت بين يدي خلفاء بني أمية وولاتهم .

وفي الختام : فقد بحثنا في أدب الوفادة من جانبين . جانب تاريخي وقد تتبعناها في كل من العصر الجاهلي وعصري صدر الإسلام والدولة الأموية إلى نهاية القرن الأول الهجري .وجانب موضوعي . وقد مزنا فيه بين وفادة ووفادة . ولم نحط بالوفادات جميعاً ، فذلك مالم يتسع له البحث بل كان التخير والانتقاء ، حسب الموضوع ، وحسب أصحاب الشأن الذين ترجم لهم . علماً بأن الوفادات لم تكن آنية ولا محدودة بل كانت واسعة شملت العرب والعجم ..كانت مستمرة إلى بعد عصر المأمون . حدث إبراهيم السندي قال: (دخل العماني على المأمون وعليه قلنسوة طويلة ، وخفّ ساذج فقال له: إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان رائقان . قال: فغدا عليه في زي الأعراب فأنشده ، ثم دنا فقبل يده وقال: قد والله ياأمير المؤمنين ، أنشدت يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ورأيت وجهيهما وقبلت أيديهما، وأخذت جوائزهما ، وأنشدت مروان وقبلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته وأنشدت المهدي ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، إلى كثير من أشباه الخلفاء ، وكبراء الأمراء والسادة الرؤساء فلا والله ياأمير المؤمنين مارأيت فيهم أبهى منظراً ، ولاأحسن وجهاً ، ولاأنعم كفاً ، ولاأندى راحة منك ياأمير المؤمنين . فأعظم له الجائزة على شعره ، وأضعف له على كلامه)(١١٩) ...

يدل هذا النص على سعة أدب الوفادة وعلى غزارة مادتها . غزارة تسمح للباحث الجاد أن يجعل من موضوعها كتاباً قيماً . وهو ما نلفت النظر إليه . والله من وراء القصد.

الهوامش

(١) القاموس المحيط . للفيروز أبادي مادة " وفد " (٢) أساس البلاغة . جار الله الزمخشري . مادة " وفد " (٣) سورة مريم . الآية : ٨٥ (٤) لسان العرب : مادة " وفد " (٥) العقد الفريد :١ : ٢٦٩ (٦) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٢ (٧) العقد الفريد : ١ : ٢٦٩ (٨) المصدر نفسه ١ : ٢٧٩ (٩) العقد الفريد ١ : ٢٨٠ (١٠) المصدر نفسه ١ : ٢٧٩ (١١) المصدر نفسه ١ : ٣٩٩ (١٢) ديوان حسان بن ثابت : ١١ (١٣)الأغاني(دار الكتب) ٣: ١٢, ٤: ١٣٤.(١٤)المصدر السابق :١٨٢-١٨٣(١٥) شرح المعلقات السبع للزوزني :٨٣ . (١٦) المصدر نفسه ٢٨٤-٢٨٥ (١٧) ماء السماء امرأة يمنية . ينظر تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٤ .(١٨) الظربان دويبة كالهرة منتنة . وفسا بينهما الظربان أي تقاطعوا لأنها إذا فست في ثوب لا تذهب رائحته مدى الدهر . ينظر القاموس مادة "ظرب" (١٩) ينظر شرح المعلّقات السبع للزوزني ٣٢٤ – ٣٢٥ (٢٠) العقد الفريد ١ : ٢٨٣ – ٢٨٥ (٢١) ربحلاً : الربحل من الربح واللام مزيدة . وامرأة ربحلة . عظيمة الخلق . ينظر الأساس مادة " ربح " وفي القاموس . الربحل : التام الخلق العظيم الشأن . ينظر مادة " ربحل " (٢٢) المصدر السابق ١ : ٢٨٣ – ٢٨٥

(٢٣) قال ابن إسحاق : وفيهم نزل من القرآن : "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون " . ينظر سيرة ابن هشام ٤ : ١٦٣ (٢٤) سيرة ابن هشام ٤ : ١٥٨ – ١٥٩ (٢٥) المصدر نفسه ٤ : ١٥٩ . (٢٦) البيع : مواضع الصلوات والعبادات . واحدها بيعة .

(٢٧) القزع : السحاب الرقيق . يريد إذا لم تمطر السماء فأجدبت أرضهم (٢٨) الكوم . جمع كوماء . وهي العظيمة السنام من النوق . وعبطاً . أي: من غير علة . (٢٩) سيرة ابن هشام ٤ : ١٦٠ – ١٦١ .(٣٠)وهي رواية أبي زيد .ينظر السيرة ٤ : ١٦١. (٣١) لا يطبعون :لا يتدنسون.

(٣٢) شمعوا : هزلوا . وأصل الشمع الطرب واللهو .(٣٣) المائدة . الآية : ٧٦ (٣٤) لمؤتى له : الموفق .(٣٥) سيرة ابن هشام ٤ : ١٦٢. (٣٦) خزانة الأدب . البغدادي ١ : ٥١٣. (٣٧) أوجرا : أخاف

(٣٨) خزانة الأدب ١ : ٥١٣ (٣٩) سيرة ابن هشام ٤ : ١٧٥ . (٤٠) النمرة كساء . وهي من لباس الأعراب . (٤١) تأمورته : إمارته . وتشمل القلب والنفس منه وهي على زنة تفعول .

(٤٢) النبطي من الاستنباط . قال : واستنبط معنى حسناً ورأياً صائباً لعلمه الذي يستنبطونه منهم . (٤٣) كناية عن العدالة . حتى ولو كان ذلك في أدق الأمور . (٤٤) العقد الفريد ١ : ٣١١ . (٤٥) المصدر السابق ١ : ٣١١ .

(٤٦) الشعر الشعراء . ابن قتيبة ص ٢ المقدمة . قال : (ولو قصدنا لذكر أمثال هؤلاء في الشعر لذكرنا أكثر الناس ، لأنه قل أحدبه أدنى مسكة من أدب وأدنى حظ من طبع إلا وقد قال من الشعر شيئاً.)(٤٧) الغديرة : الذؤابة من الشعر . (٤٨) سيرة ابن هشام ٤ : ١٦٨ . (٤٩) الركوسي من الركوسية وهم قوم بين النصارى والصابئة . (٥٠) المرباع ربع المغنم . ينظر الأساس مادة " ربع " .

(٥١) سيرة ابن هشام ٤ : ١٧٣ . (٥٢) المصدر نفسه ٤ : ١٧١ . (٥٣) المصدر نفسه ٤ : ١٦٩ . (٥٤) السّلى : الجلدة الرقيقة التي يكون بها الجنين قبل الولادة .ويكنّى بحولاء السّلى وحدقة البعير عن الخطب . (٥٥) ترنّق من الترنيق وهو : إدامة النظر . ينظر القاموس مادة " رنق " (٥٦) الركس : قلب أول الشيء على آخره . (٥٧) تصفر درهمنا . تجعل فضتنا ذهباً . (٥٨) العقد الفريد ١ : ٣٠٩ . (٥٩) سيرة ابن هشام ٤ : ١٦٣ . (٦٠) زهرة الآداب ٤ : ١٠٠٢ . (٦١) شرح ديوان جرير ٩٦ – ٩٩ . (٦٢) الأغاني : ٣ – ٣٥١ .(٦٣) الأغاني ٢٠ – ٢١٢ – ٢١٣ . (٦٤) طبقات فحول الشعراء: ٦٢٩ . (٦٥) ديوان مسكين الدرامي : ١٠ . (٦٦) الأغاني ١٢ : ٥٣ .

(٦٧) العقد الفريد ١ : ٣٣٥ . (٦٨) الشعر والشعراء : ١٥٣ . (٦٩) قطني بمعنى : اكفني والأصل قطي وهي اسم فعل بمعنى يكفي وتزداد عليها نون الوقاية فيال قطني ... (٧٠) العقد الفريد ١ : ٣١٣ . (٧١) الشتيم : الأسد . (٧٢) الأمالي ٢ : ١٠٣ . (٧٣) الخزانة ٢ : ٢٦٠ .

(٧٤) عيون الأخبار . ابن قتيبة : ٣ : ١٥٩ . (٧٥) الطبري : ٦ : ٤١٣ .(٧٦) الأغاني ١٦ : ١٨٢ . (٧٧) المصدر نفسه : ١٦ : ١٨٢ . (٧٨) الحماسة البصرية ٢ : ٥٠٧ . (٧٩) الأغاني ١٥ : ٣٧٠ . (٨٠) معجم البلدان ٢ : ٥٠٧ . (٨١) خناصرات بليدة قريبة من حلب . المصدر نفسه . والروض المعطار في خبرة الأقطار وفيه ذكر لشعر لعدي بن الرقاع يقول فيها .

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه وسقى خناصرة الأحصى وجادها

قال : الأحصّ من ديار تغلب . ينظر : ٢٢٢ .(٨٢) الأغاني ١٣ : ١٥٩ . (٨٣) المقنب : الخيل بين الثلاثين أو الأربعين تتجمع للغارة . ينظر القاموس مادة " قنب " (٨٤) بني سعيد : يقصد عمرو بن سعيد الأشعرق الذي قتله بعد عصيانه عليه ينظر : فوات الوفيات ٣ : ٣٦١ . (٨٥) طبقات فحول الشعراء ٢ : ٦٥٣

(٨٦) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ١٨٩ . (٨٧) العصر الإسلامي شوقي ضيف ٢٩٩ . (٨٨) الأغاني ٤ : ٤٢١ . (٨٩) الأغاني ٤ : ٤٠٨ وأدب السياسة في العصر الأموي أحمد محمد الحوفي ٤٨٦ – ٤٨٧

(٩٠) جحاجح : جمع :جحجاح وهو السيد . بلج : جمع أبلج وهو المطلق الوجه الباشّ . مرازبة : جمع مرزبان وهو الرئيس . جرد : جمع أجرد وهو في الأصل الجواد القصير الشعر والمراد هنا السابق إلى العمل العظيم . عتاق : جمع

عتيق : وهو الحسيب . مساميح : جمع مسماح وهو الكريم ، مطاعيم جمع مطعام : وهو الذي يطعم الناس كثيراً . (٩١) ديوان كثير عزة ٢٦٧ . (٩٢) معجم الشعراء ٢٣٢ .

(٩٣) البيان والتبيين ١ : ٣٩٩ . (٩٤) الأغاني ١٣ : ٣١ . (٩٥) شرح ديوان جرير صفحات متفرقة منه . (٩٦) طبقات فحول الشعراء : ٣٨١ . (٩٧) شرح ديوان جرير ٩٦ – ٩٩

(٩٨) العقد الفريد ٢ : ٨٢ . (٩٩) شعر الراعي : ٢ (١٠٠) المصدر نفسه ١٢١ (١٠١) المصدر نفسه ١٢١ (١٠٢) العقد الفريد ١ : ٣٥٢ . (١٠٣) المؤتلف والمختلف ٢٤٧ .(١٠٤) طبقات فحول الشعراء ١ : ٥٠٨ (١٠٥) زهر الآداب ١: ٢١٠ . (١٠٦) ديوان كثير عزة ٣٣٣ . (١٠٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١٧٧ (١٠٨) تهذيب تاريخ دمشق ٦ : ٤١ . (١٠٩) العقد الفريد ١ : ٣٦١ . (١١٠) الأغاني ١٩ : ٢٠٩ . (١١١) الشعر والشعراء ٢٣٩ . (١١٢) العقد الفريد ١ : ٣١٢ . (١١٣) المصدر نفسه ١ : ٣٢١ . (١١٤) الأغاني ١٦: ٣١ . (١١٥) العصر الإسلامي شوقي ضيف ٢٩١ وينظر طبعة دار الكتب ١٢ : ٧١ . (١١٦) البردين : الغداة والعشي . ونقبت : حفيت . ودبرت : أصابها جرحٌ في ظهرها . (١١٧) إن : هنا بمعنى قد . (١١٨) العقد الفريد ١: ٣٣٢. (١١٩) العقد الفريد ١: ٣٦٠ – ٣٦١ .

المصادر والمراجع

١ أدب السياسة في العصر الأموي . أحمد محمد الحوفي . دار القلم بيروت . ١٩٦٥م

٢ أساس البلاغة . جار الله الزمخشري ٤٦٧ –٥٣٨هـ

٣ الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني . تحقيق محمد علي البجاوي . دار الكتاب العربي ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م الأجزاء ١–١٦و١٨و١٩ تحقيق عبد الكيم العزباوي . الهيئة المصرية العامة للكتاب و ج ٢٠ تحقيق علي النجدي ناصف .

٤ الأمالي . اسماعيل بن علي القالي . ت ٣٥٦ هـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥م .

٥ البيان والتبيين . الجاحظ ت ٢٥٥هـ . تحقيق عبد السلام هارون ط٥: ١٩٨٥م .

٦ تاريخ ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧م .

٧ تاريخ الأمم والملوك . محمد ابن جرير الطبري . دار سويدان بيروت ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م

٨ تهذيب تاريخ دمشق . علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر . دار المسيرة بيروت ط٢ ١٣٩٩هـ

٩ الحماسة البصرية . صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسن البصري ت ٦٥٩هـ
١٠ خزانة الأدب . عبد القادر البغدادي ١٠٣٠-١٠٩٣هـ تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة لمصرية العامة للكتاب ط٢ ١٩٧٩م .
١١ ديوان حسان بن ثابت . شرح الأستاذ عبد أمهنا . دار الكتاب العلمية .بيروت .
١٢ ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات . تحقيق وشرح محمد يوسف نجم . دار صادر بيروت ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م .
١٣ ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧١م.
١٤ ديوان مسكين الدارمي . جمع وتحقيق خلبل إبراهيم عطية . وعبد الله الجبوري . مطبعة دار البصري . بغداد ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م .
١٥ زهر الآداب . الحصري . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط٤ منشورات دار الجيل بيروت لبنان .
١٦ السيرة النبوية . لابن هشام . تحقيق: مصطفى السقا . د.إبراهيم الأبياري .دار الخير ط١ ١٤١٠هـ ١٩٩٠م
١٧ شرح ديوان جرير . محمد بن اسماعيل الصاوي . مكتبة الحياة . بيروت لبنان.
١٨ شرح المعلقات السبع . للزوزوني ، مكتبة الحياة ١٤١١هـ ١٩٩١م .
١٩ شعر الراعي النميري وأخباره . جمع ناصر الحاني ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م.
٢٠ الشعر والشعراء . ابن قتيبة . تحقيق مفيد قميحة . دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ ١٩٨١م.والطبعة ٣ لدار إحياء العلوم ١٩٨٧م .
٢١ طبقات فحول الشعراء . محمد ابن سلام الجمحي .١٣٩ـ ٢٣١هـ شرح محمد محمود شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٩٧٤م .
٢٢ العصر الإسلامي . شوقي ضيف . ط٧ .